بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

كلية العلوم الاسلامية- قسم العقيدة والفكر الاسلامي.

محاضرات في علم الكلام المعاصر جمع وترتيب: د. محمد خليل ابراهيم.

المرحلة الرابعة- ابرز الوسائل لتطوير علم الكلام.

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، سيدنا محمد- ﷺ - وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين

إن من اهم من الخطوات العمليّة لتطوير علم الكلام الجديد او المعاصر هي:

أولا: أدوات المجتهد في علم الكلام

يحتاج المجتهد في علم الكلام ـ وهو الذي يستطيع أن يبدي رأياً، ويناقش أدلّة الآخرين ويقدّم أدلّة بديلة ـ إلى أدوات أساسيّة، تماماً كالنجّار الذي يحتاج لمجموعة أدوات، فيجب أن توضع هذه الأدوات أمام المتكلم، لتمكّنه من البحث في القضايا الكلاميّة الجديدة، وقد يكون عمل المتكلّم من هذه الناحية أصعب من عمل رجال الدين الاخرين وإن كان كلاهما معنيّاً بالمنظومة الاعتقاديّة، وأكتفي هنا بذكر ثلاث أدوات أساسيّة، هي:

أ ـ التاريخ .

إنّ صاحب علم الكلام القديم ـ خاصّةً في سياق الفلسفة العقليّة ـ غيرُ معنيّ عادةً بالتاريخ؛ لأنّه يبحث انطلاقاً من البديهيات ويرتّب الأقيسة والبراهين، فينطلق من نظريات أساسيّة كأصالة الوجود أو أصالة الماهية والصفات، أمّا المتكلّم فلا يمكنه أن يصبح مجتهداً في علم الكلام الجديد إلا أن يكون ذا ثقافة وخبرة في التاريخ؛ لأنّ بعض الموضوعات الأساسيّة العمدة في نشاط المتكلّم تقوم على القضايا التاريخيّة.

وعلى سبيل المثال قضايا النبوّة والإمامة والمعاد ترتبط في جزئها الكبير بالوثائق التاريخيّة، فلا يمكن للمتكلّم أن يتكلّم عنها دون أن يكون خبيراً في التاريخ.

ولا يمكن للمتكلّم أن يجلس في زاوية بيته أو مكتبته ليحلّل مثل هذه القضايا الكلاميّة على طريقة علم الكلام القديم ، بل هو بحاجة إلى مطالعة جميع الوثائق التاريخيّة المرتبطة بأي موضوع؛ أو نظرية حتى يحكم بصحّة تلك النظريّة.

نعم، بعض القضايا العامّة المعلومة من الدين بالضرورة، لا تتعلّق بالتاريخ، لكنّ مسائل تحتاج الى بحث ومعرفة مستمرة حتى يكمل المسير .

لا يمكن للمتكلّم أن يكون له رأي في هذا المجال دون أن يتمسّك بقضايا علم التاريخ وعلم الحديث وتاريخ الاديان وعلم التفسير والاعجاز، فهو مطالب بأن تكون له ثقافة تاريخيّة ـ بالمعنى الواسع للكلمة ـ حتى يتمكّن من الوصول إلى مجموعة نتائج فيما يتعلّق بأي بقضيّة، إذن، الثقافة التاريخية اليوم حاجة أساسيّة في نشاط المتكلّم.

ب ـ دراسة مناهج التفكير.

المعروف أنّه يعتبر الدفاع عن العقائد الدينية ومواجهة الإشكاليّات، المهمّةَ الأساس لعلم الكلام، لكنّ التحدّيات والإشكالات على الدين لا تنحصر اليوم بالقضايا الجزئيّة، بل هناك الكثير من الإشكالات التي ترتبط بالجذور المعرفيّة لمنظومة المفاهيم الدينيّة، بحيث لا يستطيع المتكلّم ـ بوصفه المحامي والمدافع عن القيم العقائدية الدينيّة ـ أن يجيب عن هذه التحدّيات إلا بخبرة واسعة بهذه القضايا التي تقع على رأسها مناهج التفكير.

تنبني المنظومة العقائديّة الإسلاميّة في الأعمّ الأغلب على المنطق الصوري (الأرسطي)، بينما اليوم ظهرت مناهج تفكير جديدة في العالم تختلف مع هذا المنطق اختلافاً جذرياً، وهذه المناهج عمّت ـ بسبب عُدَدها المعرفيّة وجاذبيّتها الخاصّة ـ جميع البلاد الإسلامية بحيث صارت جزءاً من أدبيّاتها، وعلى سبيل المثال المنطق الذي لا يقبل بمعارف غير حسّية، قد دخل بقوّة في المدارس والجامعات بحيث

يتربّى أولاد المسلمين منذ صغرهم عليه، وهو يختلف كثيراً عن مناهج القدماء في تناول القضايا الكلاميّة، فإذا أراد المتكلّم أن يفهم الآخرين وإشكالاتهم، فإنّ عليه أن يتعرّف بالدرجة الأولى على مناهجهم في التفكير.

عندما تأتي اليوم الفلسفة الوضعيّة وتغزو العالم الإسلامي لتقول: إنّ قواعد منطق أرسطو باطلة، بينما نبني نحن علم الكلام كلِّه على قواعد هذا المنطق في الأقيسة والعكوس والتناقض وغيرها، كيف يمكن للمتكلّم اليوم أن يدافع عن منهج البحث الديني، إذا لم يكن خبيراً بمناهج التفكير؟

عندما أقول: يجب أن يكون خبيراً في المنطقيّات، لا أعني بذلك أن يكون خبيراً في كتاب «المنطق» بل أعني من ذلك أن يكون خبيراً في جميع مناهج التفكير القديمة والجديدة من المنطق الصوري، إلى المنطق التجريبي، والمنطق الرياضي، والمنطق الاستقرائي وغير ذلك.

إذا لم يستطع المتكلّم المعاصر أن يفهم اليوم آخر ما توصّلوا إليه في مجال نقد المنطق الذي تقوم عليه الدراسات الإسلاميّة، فكيف يمكنه أن يدافع عن العقائد الإسلاميّة؟! فعلى المتكلّم أن يكون متخصّصاً في هذا المجال أو لا أقلّ عليه أن يملك ثقافة واسعة فيه، حتى يستطيع أن يفهم الآخر عندما يناقشنا كيف يناقش؟ حتى لا يقع تائهاً أمام إشكالات يُسجلها زيد أو عمرو ممن ينتمون إلى الفكر الآخر، ولا يفهم عليهم ماذا يقولون أو يفهمهم بشكل خاطئ؟

ج ـ الاهتمام بالعلوم الإنسانيّة

يحتاج المتكلّم المعاصر إلى الاهتمام بالعلوم الإنسانيّة؛ إذ قد دخل العالَم بقوّةٍ اليوم في مدار العلوم الإنسانيّة، التي تقع على تماسٍ مباشر مع القضايا الدينيّة في كثيرٍ من الأحيان، فظهرت تحدّياتٌ كبيرة بالنسبة إلى الفكر الديني في قضايا العلوم الإنسانيّة، وعلى المتكلّم المسلم أن يجيب عن هذه الإشكالات ويدافع عن القضايا الدينيّة إزاء النظريّات الجديدة في العلوم الإنسانيّة كعلم الاجتماع وعلم النفس وغيرهما، أو أنّ عليه أن ينتفع بمنجزات العلوم الإنسانيّة المقبولة لديه لمزيد من وعي القضايا الدينيّة.

لقد اختلفت الأمور كثيراً بعد أن دخل العالم في القرن العشرين، خاصّةً بعد الحرب العالمية الثانية واتّجه نحوَ العلوم الإنسانيّة بعد أن كان مهتمّاً أكثر بالعلوم الطبيعيّة، ولذلك نجد المفكّر المسلم في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين كان همّه تطوّر العلوم الطبيعيّة الذي تحوّل إلى مشكلة للدين، ولذلك إذا لاحظنا كتب التفسير التي كُتبت في تلك الفترة ـ القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ـ سنجدها

كانت تهتمّ كثيراً بإثبات أنّ القرآن يشتمل على الكيمياء والفيزياء والطبّ وحقائق الفلك وعلوم الأحياء وغير ذلك، حتى أنّهم ألّفوا كتباً موسوعيّة ضخمة كي يثبتوا أنّ في القرآن جميع العلوم الطبيعيّة؛ لأنّ مشكلتهم كانت مع العلوم الطبيعيّة، حيث كانت تظهر يوميّاً نظرياتٌ جديدة تُشعر المتكلّم المعاصر بأنّها تعارض المنظومة العقائدية الإسلاميّة، فأراد أن يوفّق بين العلوم الطبيعيّة والإسلام، لكن بعد أن دخل العالم في القرن العشرين، تحوّلت الأمور وصارت العلوم الإنسانيّة تحظى بأهمية أكبر من العلوم الطبيعيّة خاصّةً ما بعد الحداثة، فظهرت نظرياتٌ جديدة في قضايا علم الاجتماع، وعلم النفس وعلم التاريخ وعلم اللغة، وغير ذلك.

من هنا، ظهرت اليوم تحدّيات كثيرة وكبيرة في قضايا العلوم الإنسانيّة التي تُشعر الإنسان بأنّها قد تقع في مقابل المنظومة الفكريّة الإسلاميّة، بل والدينيّة عموماً، فعلى المتكلّم المعاصر أن يتعرّف على العلوم الإنسانيّة ويفهم تلك النظريّات حتى يستطيع أن يدافع عن العقائد الإسلاميّة أو يتعمّق في فهمها، وكما كتب السيد جمال الدين (الأفغاني) ردّاً على الدهريّين، مستنداً إلى معطيات العلوم الطبيعيّة والفلسفيّة، كذلك المتكلّم اليوم هو بحاجة إلى أن يفهم المشاكل التي تواجه الدين من خلال العلوم الإنسانيّة.

بل قد تكون الأمور اليوم أصعب من الماضي؛ لأنّ قضايا العلوم الإنسانيّة تدخل في كثير من مجالات الحياة وتؤثّر على نمط حياتنا من حيث لا نشعر، وقد نجد في يومٍ من الأيّام أنّ النظام التعليمي والتربوي والإعلامي و.. كلّها باتت تقوم على نظريّات غربية علمانيّة تقع في مقابل المنظومة الاعتقاديّة الإسلاميّة، فرصد مثل هذه النظريّات يحظى بأهمية بالغة.

عندما يواجه المتكلّم المسلم قضايا العلوم الإنسانيّة، عليه أن يتّخذ موقفاً منها، الأمر الذي يتطلّب منه أن يكون مطّلعاً عليها، ولا نقول: يجب على المتكلّم أن يكون متخصّصاً في التاريخ أو متخصّصاً في علم النفس ـ ولا يكلّف الله نفساً إلا وسعها ـ لكن عليه أن يكون مطّلعاً على ما يجري في تلك العلوم التي تُعدّ من أساسيات النقد على الإسلام أو النقد على الدين عموماً.

وبعبارة موجزة: لكي ننهض بعلم الكلام ونطوّره نحتاج إلى فتح باب الاجتهاد في هذا العلم، والمجتهد في علم الكلام بحاجة إلى أدوات أساسيّة وعلى رأسها: علوم التاريخ وعلوم المنطقيّات والمناهج والعلوم الإنسانيّة، فكلّما تفتّحت آفاقنا في هذه العلوم، أمكننا أن نصوغ دفاعاً أفضل عن الدين من الدفاع الذي يمكن تقديمه ونحن لا نعرف شيئاً عن التاريخ أو المناهج أو العلوم الإنسانيّة.

ثانيا: الخطوات الضروريّة لتطوير علم الكلام.

بعد أن تحدّثنا عن بعض الأدوات اللازمة لتطوير علم الكلام، علينا أن نبرمج هذا التطوير من خلال تحديد بعض الخطوات الضرورية التي علينا أن نقوم بها، وسأكتفي هنا بذكر خمس خطوات أساسيّة، وهي:

- الخطوة الأولى: تقوية حسّ المعاصرة
- الخطوة الثانية: الاهتمام بالإشكاليّات الميدانية ـ التطبيقية
- الخطوة الثالثة: الاهتمام بالتحديات الكلامية المناطقيّة
- الخطوة الرابعة: الاحتراز عن الأعمال الموازية
- الخطوة الخامسة: الاهتمام ببعض المباحث التقليديّة في علم الكلام

الخطوة الأولى: تقوية حسّ المعاصرة.

الخطوة الأولى التي علينا أن نقوم بها لتطوير علم الكلام، خاصّةً على صعيد المؤسّسة الدينيّة، هو ما أسمّيه: تقوية حسّ المعاصرة، فكما أنّ للإنسان حواسَّ ظاهريّة مثل اللّمس والبصر والسمع والذوق والشمّ، هناك حسّ باطني يجب أن يتكوَّن لدينا وهو حسّ المعاصرة، بأن تهمّنا القضايا المعاصرة ونرصدها بشكل متناوب، كأنّنا نملك أجهزة كشف وإنذار حسّاسة (رادارات) بالقضايا المعاصرة التي تتعلّق بالدين، فأينما طُرحت قضيّة جديدة تمسّ الدين، نلتقطها مباشرة، ونشعر في أعماقنا بأنّنا معنيُّون بها، وتستفزنا للتفكير، لا يمكن اليوم أن نكتفي بما طرح قبل ألف عام، ونترك جميع الإشكالات المعاصرة، صحيح أنّ ما طرُح في الماضي أيضاً مهمّ ونحن معنيّون بها ولكن هذا لا يعني أن نترك قضايانا المعاصرة التي تبدو أهمّ بالنسبة إلينا.

الخطوة الثانية: الاهتمام بالإشكالات الميدانيّة ـ التطبيقيّة

ظهرت في الغرب مدرسةٌ فكرية معروفة، شهدت رواجاً عظيماً في القرن العشرين، وأخذت تعمُّ العالم كلّه لتهيمن اليوم على الكثير من مساحات التفكير التي ترى أن القضيّة العلميّة، هي القضيّة القابلة للاختبار والتجربة بالحسّ ليس إلا، وبهذا تخرج القضايا غير الحسّية عن أن تكون قضايا علميّة، وعلى سبيل المثال قضية «الطقس ممطرٌ اليوم» قضيّة علميّة؛ لأنّها قابلةٌ للاختبار بالحسّ والتجربة، لكنّ قضية: «الله موجودٌ» ليست قضية علميّة أساساً؛ لأنّها غير قابلة للاختبار عبرَ الحسّ والتجربة، فيجب إخراجها من العلوم، ومثلها الكثير من القضايا الدينيّة. هذه مدرسة بالغة الخطورة في التفكير الإنساني عالمياً، وقد شهدت سلسلة تجاذبات في الغرب وانتُقدت، لتتراجع بعض الشيء نظريّاً منذ سبعينيات القرن الماضي.

انتشر هذا التفكير في جميع أرجاء الأرض، ونحن المسلمين أيضاً من حيث لا نشعر تأثّرنا بها، إذ الكثير من شبابنا وفتياتنا اليوم في الجامعات والمعاهد العلميّة يتربّون على روح هذا التفكير، لأنّ النظريات العلميّة الأكثر رواجاً اليوم هي النظريّات الغربيّة عادةً، وكثيراً ما بُنيت على أساس هذا التفكير.

الخطوة الثالثة: الاهتمام بالتحدّيات الكلاميّة المناطقيّة

كلّ منطقة لها مشاكلها الفكريّة والكلاميّة التي ربما لا وجود لها في المناطق الأخرى، والمتكلّم الإسلامي عليه أن يرصد هذه المشاكل المناطقيّة إضافةً إلى المشاكل المشتركة؛ لأنّ الكلّ وإن كانوا معنيّين بأن يهتموا بالمشاكل المشتركة، لكنّهم معنيُّون أكثر بالاهتمام بالمشاكل المناطقيّة نتيجةَ توزيع الأدوار، حيث لا يستطيع الكلّ أن يرصد جميع المشاكل والتحدّيات الفكرية خاصّةً إذا كانت في مناخٍ لا يعرفه.

فعلى سبيل المثال المتكلّم الإفريقي عليه أن يهتمّ بالمناخ الموجود في إفريقيا، ليعرف ما هي طبيعة المشاكل التي تواجه نمط تفكير الناس إزاء القضايا الدينيّة في هذه المنطقة، وهو بوصفه متكلّماً عليه أن يجيب عنها، ربّما الكثير من المشاكل هناك لا وجود لها في العالم العربي، وربّما يكون الكثير من مشاكل العالم العربي لا وجود له هناك، فبدل أن ننقل المشاكل غير الموجودة، علينا أن نبحث عن المشاكل الموجودة ونحلّها.

عدم وجود التخطيط في هذه الناحية قد يؤدّي إلى مثل هذه المشكلة، فبدل أن نأتي بموضوع ليس له وجود في هذه المناطق، ثم نطرحه فنخلق مشكلةً جديدة، ونزيد

الطين بلّةً، علينا أن نبحث عن المشاكل الموجودة في كلّ منطقة ونحاول حلّها، فعلى المتكلّم المعاصر أن يكون مهتمّاً بالمشاكل الموجودة في منطقته.

إذن، الخطوة الثالثة التي علينا القيام بها، هي القدرة على رصد المشاكل المشتركة بين المسلمين في العالم على مستوى القضايا الفكريّة والكلاميّة إلى جانب المشاكل الخاصّة، أي المشاكل المتعلّقة بقوميّات أو لغات أو مناطق جغرافيّة خاصّة، وهذا الجمع هو الذي يوزّع أدوارنا ولا يشتّت طاقاتنا ولا يورّطنا في استهلاكٍ عبثيّ لها.

الخطوة الرابعة: الاحتراز عن الأعمال الموازية

تحتاج المؤسّسة الدينية إلى أجهزة للتنسيق فيما بينها حتى تهتمّ بجميع المشاكل الفكريّة دون أن تهدر الطاقات في نقطةٍ معيّنة وحول مسألةٍ معيّنة، وهذا ما يحصل كثيراً للأسف في المؤسّسة الدينية، حيث يعمل أشخاصٌ مختلفون على موضوع معيّن من دون تنسيق فيما بينهم، الأمر الذي يؤدّي إلى ظاهرة الأعمال الموازية، فتعمل ثلاث مؤسّسات على تحقيق كتاب واحد، ويكتب أربعة أشخاص في نفس الوقت كتاباً في موضوعٍ معيّن من دون اطّلاع بعضهم على الآخر.

الخطوة الخامسة: الاهتمام ببعض المباحث التقليديّة في علم الكلام

ثمّة بعض المباحث التقليديّة في علم الكلام أخذت تحظى بأهميّة كبيرة اليوم، وهي مع الأسف في بحوثنا الكلاميّة قليلة، وتحتاج إلى مزيد من الاهتمام بها من قِبل الباحثين والعلماء، وسأذكر أنموذجين من هذه المباحث المهمّة:

مسألة المعاد.

عندما نراجع الكتب الكلامية نجد أنّ المباحث المتعلّقة بالمعاد قليلة، وهي في الغالب تعتمد النصوص القرآنيّة، حيث كانوا يعتمدون في قضيّة المعاد على القرآن الكريم والسنّة الشريفة أكثر من اعتمادهم على المعطيات العقليّة، فصارت بعض الكتب الكلامية في قضيّة المعاد أشبه بتفسير القرآن منها بالمباحث الكلاميّة.

بينما اليوم تحوّل المعاد إلى مسألة معقّدة وإشكاليّة، وعلى سبيل المثال مسألة الخلود وتناسب الذنب والعقاب من المسائل التي أثارت جدلاً واسعاً اليوم، على سبيل المثال كيف يمكن أن نجمع بين العدل الإلهي والإخلاد في النار؟ وكيف يمكن أن نقبل بأن يعصي شخصٌ مدّةً محدودة من الزمان لكنّه بسببها يُعذّب في النار خالداً إلى ما لا نهاية؟!

هذا الإشكال ليس جديداً، لكنّه اليوم يأخذ رواجاً كبيراً، ويكرّرونه ويعيدونه بهدف إثبات ظلم الدين للإنسان، وعدم إنسانيّة الدين، وأنّ هذا الاله الذي صوّروه لنا هو ظالمٌ جائر (والعياذ بالله)، وهذا موضوعٌ مهمّ.

الخلاصة .

إنّ علم الكلام ـ كأيِّ علم من العلوم ـ شهد تحوّلات وتطوّرات عديدة عبر التاريخ، فمني بتراجعٍ في فترة ما، وشهد تنامياً في فترة أخرى، وهذا أمرٌ طبيعي جداً، لكنّنا إذا أردنا اليوم أن نشهد تطوّر الكلام الإسلامي مجدّداً فعلينا أن نفتح باب الاجتهاد فيه، وهذا لن يحصل إلا من خلال الاعتراف بالآخر واحترامه.